أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية

للدكتور / محمد بن المختار الشنقيطي (*)

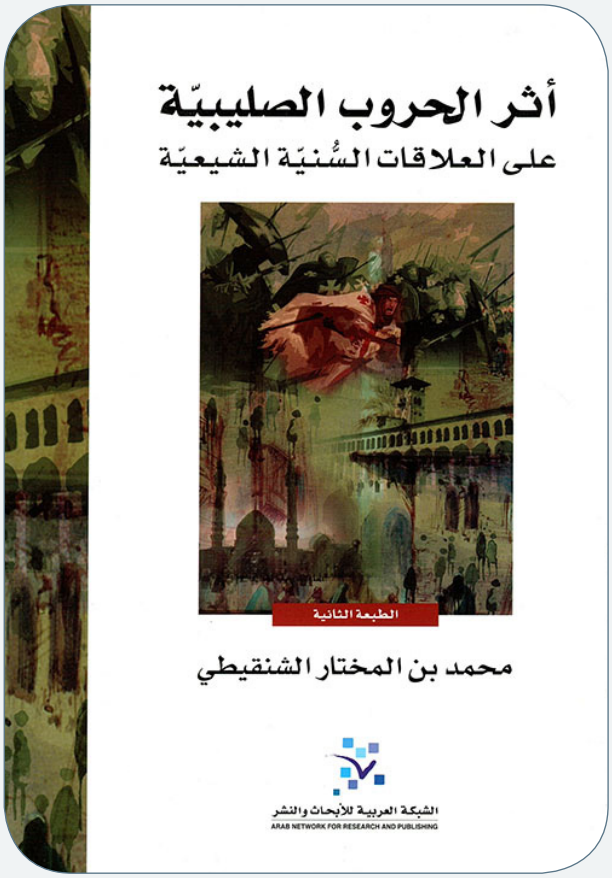

مراجعة: أيمن بن سعد النفجان

جدة

Jeddah

ayman@nafjan.net

مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز، العدد الأول، يناير ٢٠٢٣م، السنة الأولى

صدر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر كتاب "أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية"، للدكتور محمد بن المختار الشنقيطي، والكتاب ترجمة لأطروحة دكتوراه باللغة الإنجليزية، للكاتب في تاريخ الأديان من جامعة (تكساس تك) الأمريكية، نوقشت عام ٢٠١١م، وسبق أن ترجمت إلى اللغة التركية، وقد تولى الكاتب بنفسه ترجمة الأطروحة إلى اللغة العربية، وتصرف في النصوص في بعض الأحيان بحسب ما ذكر في مقدمة الكتاب.

يرى مؤلفه أن الأمة لن تخرُج من الطريق الذي قادها إلى الجهالة الطائفية والهمجية السياسية التي تعيشها اليوم، إلا إذا أدركت كيف دخلت هذا الطريق المُعتم ابتداءً، ويستشهد المؤلف في مدخل كتابه بمقولة: "من أجل بناء مستقبل جديد نحتاج إلى بناء ماضٍ جديد".

تتمثل فرضية الكتاب الأساسية في أن الحروب الصليبية أسهمت في انحسار التشيع في مصر والشام، في القرنين السادس والسابع الهجريين، وأنها فرقت بين السنة والشيعة في أوائلها، لكنها وحدت كلمتهم فيما بعدُ.

حدد الكاتب ثلاث مهمات تسعى إليها الدراسة، هي:

١- تقديم سرد تاريخي لمسار العلاقات السنية الشيعية إبّان الحروب الصليبية.

٢- بيان أثر الحروب الصليبية في تطور العلاقات السنية الشيعية.

(*) الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، (٢٠١٦م)، ٢٨٨ صفحة.

٣- تفكيك الذاكرة التاريخية المتفجرة في هذا الموضوع وترميمها.

والكتاب مكون من خمسة فصول: ففي الفصل الأول (دماء على ضفاف المتوسط: القافلة التركية في مواجهة الحملات الصليبية) ناقش الكاتب في هذا الفصل فكرة أن المقاومة الإسلامية للحملات الصليبية ظاهرة تركية في جوهرها، فمن وجهة نظره أن النخبة العسكرية التركية هي التي قاومت الوجود الصليبي حتى هزمته، ويرى أن القادة كانوا أتراكًا، حتى وإن كانوا أكرادًا كصلاح الدين الأيوبي، أشهر من قاوم الصليبيين، ويرى الكاتب أن الأتراك كانوا في الأغلب سُنّة؛ لذلك انحسر التشيع في بلاد الشام.

أما في الفصل الثاني (عالم منحل العرى: الخريطة الطائفية عشية الحروب الصليبية) فيقدم الكاتب للقارئ تصورًا للخريطة الطائفية في المنطقة، مستعينًا بالمصادر المختلفة من رحلات وكتب الجغرافية والتاريخ.

وفي الفصل الثالث (اكتشاف وحدة المصائر: السنة والشيعة والإمامية في مواجهة الفرنجة) شرح الكاتب في هذا الفصل كيف توحد المسلمون بطوائفهم جميعها ضد الفرنجة، وأورد المؤلف نماذج كثيرة من ذلك في طرابلس وحلب ودمشق وعسقلان. وعلّل هذا التعاضد بين أهل السنة والشيعة الإمامية في وجه الفرنجة بعوامل ثلاثة: التقارب المذهبي، والقرب الجغرافي، والسلبية السياسية التي سادت الفكر الإمامي قبل الدولة الصفوية.

وفي الفصل الرابع (قبول ما ليس منه بد: السنة والشيعة والإسماعيلية في مواجهة الفرنجة) يناقش الكاتب الصراع السني الإسماعيلي، ويرى أن الفاطميين حاولوا في البدء احتواء العاصفة الصليبية وتوجيهها لمصلحتهم، لكن بعد اجتياح الفرنجة للقدس بدأ الفاطميون في مقاومة الغزو الصليبي، مع محاولة ضرب الطرفين السني والفرنجي بعضهما ببعض، على أن الفاطميين اضطروا في النهاية إلى تسليم مصر للقيادة السنية.

أما الفرقة الإسماعلية الثانية "الحشاشون" فقد كان لهم أثر دموي معوق للمقاومة السنية، من خلال اغتيالهم للقيادات السُنية، ولم تسلم القيادات الإمامية والفاطمية منهم، لكنهم دخلوا في تفاهم ضمني مع أهل السنة منذ أيام صلاح الدين، فبدؤوا باتخاذ القيادات الصليبية هدفًا، ثم تحولت الشيعة الإسماعيلية كلها فيما بعد إلى جماعة مسالمة دون مطامح سياسية.

وينقل المؤلف في الفصل الخامس (حمى التاريخ: صلاح الدين الأيوبي في الحِجاج السني الشيعي) القارئ من الماضي إلى الحاضر، فيستعمل صورة صلاح الدين في الذهنية السنية والشيعية اليوم مثالاً للذاكرة التاريخية المتوازية عن الحروب الصليبية. حيث يرى أهل السنة صلاح الدين بطلاً قائدًا ومؤمنًا مجاهدًا، في حين يراه الشيعة الإمامية اليوم (بخلاف الإمامية في عصره) مغامرًا لا مبدأ له، بل يتهمه بعضهم بالتواطؤ مع الصليبيين، في مفارقة عجيبة تدل على

الحضيض الذي تصل إليه الدراسات التاريخية المشحونة بالحِجاج الطائفي.

وقد استعمل المؤلف كتابات جدلية معاصرة (سنية وشيعية) نماذج لهذا الانشطار في الذاكرة التاريخية، لكنه خَلَص إلى أن صلاح الدين ترك وراءه أثرًا باقيًا، لن تمحوه الأحقاد التاريخية والذاكرة الموتورة.

واستنتج الكاتب في الخاتمة أن الحروب الصليبية أسهمت في انتقال مركز التشيع إلى بلاد فارس، معللاً ذلك بالعزلة التي عاشها شيعة جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي حيث عمقت من هويتهم الانفصالية. وبعد زوال الاحتلال الفرنجي أنجزوا نهضة دينية وصاغوا هوية ثقافية، أهّلتهم ليكونوا السند الفكري للصفويين. وكانت الصبغة العربية غالبة على التشيع في أثناء الحروب الصليبية، ولذلك ظل التواصل السياسي والاجتماعي أسهل بين السنة والشيعة، على الرغم من الفجوة الاعتقادية والفقهية التي كانت تتسع مع الزمن.

ممّا سبق يمكن القول بأن المكتبة العربية تفتقد قراءة متأنية لتاريخنا الإسلامي؛ ولا سيما تاريخ الصراعات الداخلية بين الفرق والطوائف، والصراع ضد الآخر أيضًا كالفرنجة كما سماهم الكاتب، لذلك فإن فكرة البحث مهمة ولا سيما في وقتنا الحاضر الذي تعيش فيه الأمة حالة من الفوضى والصراعات الطاحنة، خصوصًا أن أغلب الصراعات التي تعيشها منطقتنا في وقتنا الحاضر هي صراعات ذات جذور تاريخية، ومن

أهم أسبابها عدم قراءة تاريخنا قراءة دقيقة ومتجردة، لذلك فإن أمثال هذه الدراسات من الممكن أن تساعد على تفكيك الذاكرة التاريخية المتفجرة كما سماها الكاتب.

من المنطلق العلمي أضع بين يدي القراء عددًا من الملحوظات التي لا تقلل من قيمة الجهد الذي بذله الكاتب، وملحوظاتي محصورة في جانب البحث التاريخي:

١- مصادر الكتاب:

أول ما يلفت نظر القارئ لأي كتاب المراجع والمصادر التي اعتمد عليها، وفي هذا الكتاب عدة ملحوظات على المراجع والمصادر التي استعان بها، منها:

أ - استعانة الكاتب بمصادر غير تاريخية وغير علمية، على سبيل المثال: "رواية الحروب الصليبية"، للأديب الشهير أمين معلوف، وإن كانت رواية جميلة وماتعة فإنها لا تصلح أن تكون مصدرًا؛ لأنها "رواية" لم يدّعِ مؤلفها أنها بحث علمي يمكن الاعتماد عليه.

ب - تكرر في الكتاب النقل عن مصادر أجنبية تنقل عن مصادر عربية، وهذا ما يسبب كثيرًا من الخلط، وكان الأولى العودة إلى المصادر العربية مباشرة.

ج -من الملحوظ قلة المراجع التي استعان بها الكاتب لدراسة هذه الحقبة سواء العربية أو غير العربية مع وفرتها وكثرتها، لذلك فاته كثير من المعلومات كما سنوضح.

د - استعان الكاتب في الفصل الثاني لتعرُّفِ الخريطة

الطائفية لبلاد الشام بمصادر متقدمة بقرنين، كرحلة المقدسي.

هـ - المتصفح للكتاب يلحظ ضعف التوثيق، فكثير من المعلومات ذكرها الكاتب دون أن يورد مصدرًا، بل بعض الصفحات لم يذكر فيها أي مصدر كما في صفحات (٩٠)، (١٢٠)، (٢٢٠) إلخ.

٢- عدم الالتزام بالنطاق الجغرافي أو الزمني:

لم يلتزم الباحث بالنطاق الزمني أو الجغرافي للبحث، الذي ذكره في مقدمة الكتاب، فتارة نجده يسهب في الحديث عن بني بويه كما في صفحة (١٠٩) مع أن حكمهم قد سقط قبل قرنين من الهجمات الصليبية موضوع الدراسة، بل نراه يبعد النجعة فيختم الدراسة بالحديث عن الدولة الصفوية، وهي خارج النطاق الجغرافي والزمني للدراسة.

٣- منهجية المؤلف:

من الملحوظ أن الكاتب اعتمد على منهج المستشرقين في قراءة تاريخ العالم الإسلامي، فنجده يعتمد على تحليلاتهم واستنتاجهم كثيرًا، كأخذ الكاتب بنظرية روسل في "تمسيح الجرمانيين وجرمنة المسيحية"، وقاس عليها وجعلها أسلمة الترك وتتريك الإسلام، وخرج الكاتب في خاتمة الدراسة إلى نتيجة مفادها: "المقاومة الإسلامية لحملات الفرنجة كانت مقاومة تركية بالأساس"، متجاهلاً الأثر القوي للأعراق المختلفة في مقاومة الفرنجة، فنراه ينسب الأسرة الأيوبية

الكردية إلى النخبة التركية مستندًا إلى تحليلات غربية (ص٧٧)، مع أن أفراد الأسرة الأيوبية لم يدَّعوا الانتساب إلى القبائل التركية بل كانوا يفاخرون بنسبهم العربي بحسب ما ذكره الكاتب، حتى المماليك كانوا من أعراق مختلفة.

أيضًا عُرف عن الباحثين الغربيين قناعتهم بأن العرب لم يكن لهم أثر في الحياة الثقافية والسياسية، وهذا ما نجده في طيات الكتاب: فنجده تارة يصف أحد أمراء الدولة المزيدية الشهيرة في جنوب العراق بأنه قائد بدوي، مقلّلاً أثر الدولة المزيدية البارز في الحياة السياسية والاقتصادية. حتى الإمارات العربية في الحواضر كدولة بني كلاب في حلب لم تسلم من تقليل الكاتب.

وقد نلتمس العذر له لكون الكتاب في الأصل أطروحة في جامعة أمريكية، ولكن المنهجية الغربية لجهلها بكثير من دقائق الحياة الاجتماعية والثقافية في المنطقة تكون في الأغلب حبيسة "تاريخ أوربا العصور الوسطى"، وتربط كل حادثة تاريخية بالانتماء العرقي أو الطائفي، إلا أن من درس التاريخ الإسلامي يعرف أن المذاهب والأعراق المختلفة قد تداخلت وتحالفت بحيث يصعب أحيانًا التفريق بينها، وكانت وحدة الدين الإسلامي، ثم المصالح السياسية تجمعها وتفرقها أكثر من هويتهم العرقية أو الفقهية.

٤- اجتزاء النصوص:

يتكرر في الكتاب اجتزاء النصوص من المصادر، وهذا الذي أدى إلى استنتاجات غير دقيقة، منها: في (ص٢٤٣)

استنتج الكاتب أن لدى علماء الشيعة الإمامية المتقدمين في القرن السابع الهجري موقفًا سلبيًّا من السلطان صلاح الدين الأيوبي، وذكر رواية نقلها الذهبي: أن أحد علماء الإمامية يدعى أبا تراب كان يترحم على الدولة الفاطمية، ويسب صلاح الدين، وبالعودة إلى المصدر تبين أن الراوي يذكر أن الشيخ أبا تراب قد كبر في السن، ووقع في خَرَف واستشهد بترحمه على الخلفاء (أي الفاطميين) وسب صلاح الدين لإثبات خَرَفه وحالة الهذيان التي وقع فيها والخلل العقلي، قلت: المطلع على الصراعات الطائفية في تلك الحقبة يعرف أن الإمامية كانوا على خلاف مع الإسماعيلية، لذلك من غير المتوقع ترحم الإمامية على الإسماعيلية إلا إذا كان من رجل مختل وخَرِفٍ عقليًّا.

٥- استدراكات على بعض المعلومات التاريخية:

ورد في الكتاب بعض المعلومات والاستنتاجات غير الدقيقة، منها:

أ - ذِكْرُهُ أن الأسرة الصفوية أسرة تركية شيعية (ص١٤٠)، والثابت أنهم كانوا في الأصل أسرة سنية صوفية[١]، بل كان من أسرة الأردبيلي التي تفرعت منها الأسرة الصفوية شيوخ الصوفية في العراق كعلاء الدين بن صدر الدين[٢].

ب - أن معرفة النسب التركي مختلة لدى الكاتب فيما يبدو،

(١) **تاريخ العراق بين احتلالين**، طبعة الدار العربية للموسوعات، ٣٣٥/٣.
(٢) **إنباء الغمر بأبناء العمر**، ١٨٦/٨.

لذلك نراه يفصل بين الأتراك والمغول كما في (ص٤٢، ٤٤)، مع أن المغول ينتمون إلى القبائل التركية[٣]، والمغول أبرز القوى السياسية التركية في المنطقة في حقبة بحث الكتاب، ولو أنه ناقش أثرهم في الصراعات الطائفية لخرج بنتائج مختلفة.

٦- غياب كثير من المعلومات التاريخية:

لعل من المفيد أن نختم هذا العرض بإضافة بعض المعلومات التي فاتت الكاتب، لعله يستدركها في الطبعات اللاحقة:

أ - الفرضية الأساسية للدراسة - بحسب ما ذكر الكاتب في مقدمة كتابه (ص١٣) - هي: "أن الحروب الصليبية أسهمت في انحسار التشيع في مصر والشام"، وقد اعتمد الكاتب على الاستنتاج، وفاته الاطلاع على عددٍ من الدراسات المعاصرة التي حددت أسباب انحسار التشيع:

١ - لقد كان للغزو المغولي أثر بارز في القضاء على النفوذ الإسماعيلي، فمن الدراسات التي ذكرت أثر المغول في القضاء على النفوذ الإسماعيلي: دراسة حديثة صادرة من مركز الدراسات الإسماعيلية بعنوان "الناجون من الغزو المغولي"، مستندة إلى رحلة الشاعر الإسماعيلي نزاري قوهستاني[٤]، في حقبة الدراسة نفسها، أي القرن السابع الهجري، وأوردت المحققة كثيرًا من القرائن التي

---

(٣) **تاريخ الدولة العثمانية**، يلماز أوزتونا، ١/٥٤.

(٤) طبع باللغة العربية سنة ٢٠٠٤م، ترجمه سيف الدين القصير، ونشرته دار الساقي.

تدل على أن المغول قد دمروا الإمارات الإسماعلية من إيران إلى الشام؛ وهو ما أدى إلى تخفّي الإسماعيلية بمذاهب أخرى، وإن كانت هذه الدراسة توافق ما ذهب إليه الكاتب من أن القبائل التركية (المغولية) الآتية من الشرق قد أسهمت في القضاء على الإسماعيلية، ولكن لم يكن بهدف خدمة المذهب السني كما يعتقد الكاتب، بل لخدمة أهدافها السياسية، وقد يكون ذلك خدمة لحلفائهم من الشيعة الإمامية.

٢ - أصبح لدى القادة الجدد من الإسماعيلية توجه لترك الحياة السياسية، والاندماج في المجتمع[٥]، ولم يكن للحروب الصليبية أثر في اختفاء الإسماعيلية من المشهد السياسي كما استنتج الكاتب.

ب - حصر الكاتب حديثه عن الفرق الإسماعيلية بالدولة الفاطمية والحشاشين، ولم يذكر الفرق الأخرى في بلاد الشام كالنصيرية الذين كان لهم أثر في الحياة السياسية[٦]، وقبلهم كان للقرامطة أيضًا أثر بارز حتى إن بعض الباحثين يرى أن الحشاشين في الشام هم امتداد للقرامطة[٧].

ج - غاب عن الكاتب الأثر القوي لأسرة المهاينة الإمامية في مقاومة الصليبيين، ومناصرة صلاح الدين الأيوبي، ومن أشهرهم الأمير قاسم بن مهنا الذي كان من أقرب الناس

(٥) **أعلام الإسماعيلية**، مصطفى غالب، ص٣٧٩.

(٦) **تاريخ أبي الفداء**، دار الكتب العلمية، ٣٩٢/٢.

(٧) **دولة الإسماعيلية في إيران**، لمحمد السعيد، القاهرة، ص١٠٣.

لصلاح الدين الأيوبي، حيث وصف المؤرخون العلاقة بينهم بأن صلاح الدين كان "يستصحبه في غزواته ويستنصر ببركاته في فتوحاته"[٨]، لذلك فإن استنتاج الكاتب في (ص١٧٣)، أنه لا توجد شخصية إمامية مناصرة لصلاح الدين غير دقيق.

د - في ترجمة النجم الغزي للشاه إسماعيل بن طهماز الصفوي، ذكر معلومات تاريخية مهمة، خصوصًا أن الغزي عالم ومؤرخ شامي معاصر للدولة الصفوية، ومن أبرز ما ذكره الغزي أن حيدر الأردبيلي الذي تنسب إليه الصفوية لُقّب بهذا اللقب نسبةً لجبل الصوف في بلاد الشام، حيث ثار وقضى عليه حاكم حلب قبل أن ينتقل إلى بلاد فارس[٩]، أي أن الأسرة الصفوية ذات جذور شامية، ولعل ذلك يفسر العلاقة بعلماء جبل عامل، وينفي ما ذهب إليه من استنتاجات في خاتمة الكتاب من أن عزلة علماء جبل عامل كانت هي السبب في ارتحالهم إلى الشرق، وأن الأسرة الصفوية قَدِمت من الشرق.

ختامًا أعتقد أن الكاتب كان يريد تقديم كتاب يرمم الذاكرة التاريخية، إلا أن النيات الحسنة فقط لا تقدم دائمًا بحثًا خاليًا من العيوب، ولعل الكاتب في المستقبل يعيد طباعة الكتاب، ويضيف عليه كثيرًا مما فاته، وينقح المعلومات الواردة فيه.

---

(٨) للمزيد من التفاصيل عن ترجمة الأمير قاسم راجع: **التحفة اللطيفة**، للسخاوي، ٣٧٩/٢.

(٩) **الكواكب السائرة**، لنجم الدين الغزي، طبعة بيروت، ١٢١/٣.